من الأدب الأمريكي المعاصر

رحلة يوم

للكاتب الأمريكي هاملين جارلاند

ترجمة : مرتضى عبد الغفار

عاد السيد سام ماركهام الى بيته بعد ان نقل آخر حمل من الحنطة الى المخلف فوجد زوجته قد أرقدت اطفالها في السرير وبدأت تعجن قدرا من الدقيق وهي تتحامل على نفسها تحامل متعب مكدود .

خلع سام حذاءه المثقل من قدميه ، وبعد ان وضع قطعة من الخشب فوق الدفاة ألقى بقدميه عليها باسترخاء استمع الى صرير كرسيه عندما اتكأ فيه الى وراء فلم يعر ذلك اهتماما اذ الف ذلك كما الف زوجته الرفيقة المرحاء .

ومجهوده الموصول ، بادر سام زوجته قائلا : ان هذا آخر ما عندي من القمح وربما قصدت البلدة غدا لتركيب حدوة لحيادي . فردت زوجته وهي تحاول في يأس ان تؤثر في زوجها بنغمة فيها ثقة وحزم «قد استعد للذهاب معك» فأجاب وهو يبرطم :

ـ لماذا تريدين الذهاب الى المدينة ؟ فامتعرت في وجهه قائلة : لماذا يذهب اي انسان الى هناك ، انى لم أترك البيت قرابة ستة اشهر على حين انك تذهب وتذهب .

لم يمض بعد ستة اشهر فقد كنت هناك يوم اشتريتا منجل الحشائش .

ـ متى كان ذلك ؟ في العاشر من يوليه وانت تعلم .

ـ لم يخطر ببالي أنه قد مضى هذا الزمن البعيد ، لااعتراض لي على ذهابك وسانقل زنة حمل من أكياس القمح .

اترك كيسا يعادل وزني انا والطفل .

ـ لا بأس لكن ينبغي تجهيز القمح الليلة اذا اردت ان تصحبني في الصباح فلن يتسع وقتك اذ ذاك لمساعدتي في حمل الركائب واعداد الاطفال للذهاب الى المدرسة .

ـ دعنا نذهب للعمل الآن .

ـ لامفر من ذلك وان كنت اكره الخروج ثانية .

تثاءب الزوج بألم وبدأ يدخل قدميه المتورمتين في حذائه الطويل ، كما ارتدى معطف الزوج ووضعت على راسها قلنسوة الطفل وبعدما مما الى

محزن الغلال والليل بارد والسماء صافية .

وقال سام بارتياح

ـ الليلة دافئة وقد لايسقط عليها الصقيع كما حدث في الليلة الماضية .

فرز الزوجان السليم من أكياس القمح الصارعة على ضوء المصباح ، ثم سبق سام الصومعة وفي يده دلو من الصفيح وبدأ العمل .

كان سام رجلا قويا فاستطاع ليحمل عمله بسرعة . فكانت الدلو اللامعة تغوص في أعماق القمح البارد ، ثم يرفعها بقوة الى فم الكيس حيث تلقى بثقلها على يدي زوجته المجهدتين فتزعد أوصالها ، لكنها على الرغم من ذلك ، أحدث نجر الركيبة بعدا عقب ملئها لتحصر غرها ، وأخيرا خرج سام من الصومعة وقد تصبب وجهه بالعرق ، وانبهرت انفاسه ليقوم بعلق الركائب ثم قال لزوجته :

ـ تحسن ارجاء نقلها الى العربة حتى الصباح ولن تكون بي حاجة الى انتظارك لمساعدتها ساعتئذ وحدي .

وقفت الزوجة واجمت بالارتياح اذ لم تتوقع أن تعود الى المنزل بهذه السرعة ، وشعرت بالسعادة لطلوع القمر في طريق عودتهما الى البيت .

تسللت شعاعات القمر الى حجرة نومهما خلال النافذة المفتوحة وايقظتهما أصوات الطيور أسرابا ، فتقلب الرجل في فراشه بصعوبة واحد يتحسس طريقه الى المدفأة في المطبخ المظلم البارد واستيقظت زوجته وهي تحس بآلام في عدمها وتوتر في أعصابها من ارهاق الليلة الماضية وبدات تمقص شعرها الطويل لتحمل منه عقدة .

لم يتوقف سام ليغسل وجهه ، بل انطلق عـ في العمل الى مخزن الحبوب ، وبهضت زوجته على عجل وغسلت وجهها في حوض الماء ، ثم وضعت الملابس على النار ، وشرعت تحمر الفطور وأيقظت أطفالها مع علمها بان الوقت مبكر ، بينما ترتب في ذهنها ما تريد شراءه : بكرتي خيط ، وست بارداب من نسيج قطني ، وعلبة بن ، وجوارب للاطفال .. هذه الاشياء لابد من شرائها من بين مالايحصى عدد مما تحتاج اليه .

وسرعان ما اندفع الاطفال ، في اضطراب ، من ظلام الدور العلوي لارتداء ملابسهم قرب مدفأة المطبخ ، ارتعدت أطرافهم وقد رفعوا أقدامهم العارية عن الارض الباردة وكانهم أفراخ وسط الجليد المتساقط ، تتشبع بينهم صيحة ورمجرة وبتشاجم انكسار .

تحملت الام ذلك لحظة باصدار الاوامر لهم بالتزام الصمت .

ولما بدد صبرها حملت على تلك الطغمة المتزاحمة لتطعمهم ذات اليمين وذات الشمال .

تناول الاطفال طعامهم على ضوء مصباح النفط ، وعاد سام عند الفجر الى عمله في فناء المزرعة ، وما انفرد الاطفال بانفسهم حتى أخذوا يعاكسونها لتسمح لهم بالذهاب معها الى المدينة ، غير انها اخبرتهم بانه لن يذهب معها الا الطفل الرضيع على حين يتولى أبوهم حمل القمح في العربة .

أعدت الام اطفالها للذهاب الى المدرسة واتت عملها في المطبخ . فشعرت بالضعف بعد هذا الجهد فذهبت الى حجرة النوم الباردة القريبة من حجرة الجلوس وارتديت أحسن ملابسها ولم يكن بالثوب اللائق بعد أن سوى جسدها وبدا الذبول حول كتفيها وحصرها . رقدت على فراشها لحظة لتسري عن نفسها ما تحسه في ظهرها من الم سمج . وفي لحظة كرهت اسعافها الى المدينة على الاطلاق ، فالكرى كان يداعب جفنيها ، ولكن شبح يومهما المتطاول المملول الذي يتطرها في العربة محا كل ماتجده من رهق ، فنهضت تعد طفلها الرضيع لهذه الرحلة .

وبعد شروق الشمس بقليل بدأ سام سيره عبر الطريق الى المدينة متوجها الى بلبلين وامرأته وراءه منكفئة على أكياس الصبح وبحصيها يتشبث الطفل ، وعلى وركيها عباء من قطن .

حاول سام ان يكون دمث الاخلاق ؛ فاحد يتحدث اليها في العيشة بعد العيشة وان كانت لاتفهمه الا اذا استدار نحوها تطلع الطفل الى الأعواد التي يتكون منها سياج المزارع وحرك يديه من قفازيها في كل فرصة تعبيرا عن مرحه . وكان الجو يزداد دفئا على مد الطريق ، وهبت ريح من الجنوب واستقر التراب على شال المرأة وقبعتها وانحل شعرها وتناثر حول وجهها دون انتظام ، امتار الطريق المتجه عبر البراري المرتفعة بالملامسة والخفاف بيد انه لم يحل من مواقع هزتها فواد هذا من آلام ظهرها ، ولم يكن لديها ماتتكيء عليه وازداد ثقل الطفل حتى اضطرت ان تضعه على الركائب التي تقع الى جوارها مع انها لم تستطع لحظة ان تتخلص من قبضتها عليه .

تمددت البلدة على مدى البصر مجموعة من المنازل موحدة الطراز ومن المخازن الصغيرة المطلة على الشرفات الخلفية الى جوار محطة السكة الحديد ، ولم يصادفوا بعد في رحلتهم اشجارا مظلة ، فمطت اشعة الشمس القياسية كل شيء دون هوادة على انهم شهدوا بعض النوافذ مربوطة في أماكن شتى ، وقليلا من الرجال السمر ، وجوههم في سمرة الجلد ، يجلسون في اطمئنان تحت المخازن وحواسي قبعاتهم تمر الى أعلى وتتدلى الى اسفل .

انزل ماركهام زوجته من العربة ، وتركها في أحد متاجر البقالة واتجه الى السوق ليبيع حمولته . تكلف البقال في تحيته لزوجة السيد ماركهام دون اكتراث ، وقدم لها مقعدا فتلقفته من يده وجلست ربع ساعة دون ان تتحرك وهي متكئة على ظهر المقعد المرتفع . وأخيرا بدا القلق والاضطراب يظهر على الطفل فقصت الام رجاء نصف ساعة . وهي تساعده على أن يسلي نفسه .

وأخيرا نهضت وخرجت الى الممشى وهي تحمل طفلها ويممت الى محزن الاطعمة الخافة وجلست على أحد المقاعد الصغيرة المتحركة . فالفت امرأة تشتري بعض الاقمشة الصوفية لتصنع منها ثوبا ثمن الباردة منها سبع وعشر سنتا وعدها البائع بتخفيض سنتين منها اذا اشترت عشر ياردات ، وهمت الام لو أن معها مايكفي من المال لتشتري لطفلتها ماترى حلة من هذا الصوف ، وقدمت على المنجر صبية صغيرة مرحة ، عراسة البقال ،

ثم تحدثت الى البائع واشترت قفازين وحزمت الام للسعادة التي تحظى بها أمثال هذه البنت ، ولما عاد زوجها سألته بعض النقود :

ـ ماذا تريدين ان تفعلي بها ؟

ـ أن اطعمها ·

ولما رأى انه لايستطيع امساكها اعطاها دولارا واحدا فطلبت منه ثانيا ·

ـ حسنا · يمكنك ان تذهب الى المصرف فليس معي عملة صغيرة ·

ـ ان الاطفال في امس حاجة الى بعض الملابس الداخلية الجديدة فاعطاها صكا بدولارين فاشترت سيجارا قطبيا وحوارت للاطفال وحيطا ، ثم جلست مستندة الى منضدة صراف المتجر ·

انتصف النهار فاحست بالجوع وذهبت الى العربة واحضرت طعامها الذي اعدته وقصدت متجرا لتأكل حيث يسعها ان تجد شربة ماء ! اعطى البقال قطعة من الحلوى الرخيصة واعطى امها تفاحة ونصحها ان تتناول طعامها فعملت ثم انصرفت اذ شعرت بالخجل من جلوسها هناك مدة اطول · ودلفت الى مخزن لبيع الأطعمة الجافة مما يجلب من الريف · سألها كاتب المتجر وقد اتجه نحوها ان كان لديها ماتبيعه فردت بالنفي وانصرف الرجل في غير مبالاة ·

أخذت تذرع الشارع جيئة وذهابا على غير هدى ودون أن تجد مكانا تستريح فيه · لم تعرف ماذا تصنع فهي لاتعرف أحدا هنا الا البقال · وامتلأت بالمرارة عند رؤيتها سيدتين تمران بها وقد تزينت كل منهما بثوب من آخر طراز ، ومرت بها سيدة أخرى تدفع امامها عربة اطفال يجلس فيها ولد ، في مثل عمر ابنها ، وهو يتقافز ، صاخبا صائحا ، الى أعلى والى أسفل على الحشية المطاطة للعربة ، وقد تألق وجهه المستدير النظيف تحت قلنسوته الأنيقة التي وركشت حواشيها ، فصعدت الأم النظر في طفلها الهزيل بملابسه المصرة ووجهه القذر واندفعت في سيرها بقسوة الى الامام ·

اقبلت على حاوت لبيع الأشربة الغوازة فاحست بالظمأ يشتد بها ، فارتدت الى الشارع من جديد ، سيطر عليها القلق وهي لا تعرف سبب ماتعانيه من ضيق ··· اجل انها تفتقد زوجها اذا فلتنتظر أوبته · وما هي الا لحظة حتى ترامت الى اذنها ضحكات سام زوجها فلوت رأسها فرأته في ثلة من اصدقائه قرب حاوت الحداد · انه يقضي وقتا طيبا وقد نسي كل شيء عنها ···

دب الألم في ظهرها وزاد الى حد يفوق احتمالها فقررت أن تعود ثانية الى حاوت البقال لتجد شيئا من الراحة في الجلوس على المقعد الذي يقدمه لها · ازداد غضب الطفل ونمرمه فاشترت قطعا من الحلوى بخمسة سنتات لأطفالها في البيت ، وأعطت الطفل تفاحة صغيرة منها حتى يسكت · وتمنت حضور سام بعد أن تأخر الوقت فقد حاوت الساعة الواحدة بقليل · مرت اللحظات وتبدد متاقلة الحظي وشعرت انه لابد أن تؤدي شيئا وهي في البلدة · تصفحت في ذهنها ما تريد أن تشتريه ··· ان هذا فظيع ··· ان ما تحتاجه يزيد ثمنه على عشرين أو ثلاثين دولارا على الاقل ، وهي وزوجها يحتاجان الى ملابس داخلية للشتاء البارد غير أنه لا مهرب لهما من

اتحاد الملابس القديمة مع تهلهل نسيجها وتصول لونها ، فكرت مرارة في انها لا تحتاج الى ثوب لانها لا تذهب قط الى مكان آخر غير بيتها والسوق ... لكنها نهضت ثانية الى الشارع وأخذت تخطو من مكان لآخر متطلعة بسة ويسرة الى كل شيء عسى أن تجد بعض المتعة ...

الى جانب الطريق وقف رجل ، من بلدة بون جريك ، يسند حملا من القماح حتى يعود المقال . ولاحظ الرجل الغريب السيدة ماركهام وطفلها فاعطى الطفل تفاحة . وهلل وجه الرجل بالبشر والارتياح لما فعل اذ رأى امامه زوجة فلاح عادى في ثوب أغبر وشعر أشعث ووجه متعب . لم يعرف بالضبط لماذا استشعر الرقة نحوها ؛ غير انه حاول اضفاء السرور عليها .

اعتاد المقال رؤية هؤلاء القرويات التاعسات اللائى تعوزهن البطاقة والراحة ، ألف جلوسهن ساعات في مقعده الخشبي وهن يرعين أطفالهن المكدودين البائسين وألف ايضا تجوالهن في الشوارع ، على غير هدى ودون ما هدف ، في خذلان وذلة وحزن واستسلام ... وكل هذا لم يحرك في المقال ساكنا ولم يحمل اليه معنى .

وعلى مسيرة دقيقتين من محرن المقالة يقع منزل صغير جلس في احدى حجراته رجلان وسيدة ، على وشك الانتهاء من غداء أنيق ، وقد ارتدت السيدة ملابس بيضاء بسيطة أضفت على المكان جوا من الوداعة والراحة الكاملة ولم يكن هذا المنزل الذى يقطنه السيد هول افخم منازل البلدة لكن روحته جعلته أكثرها اناقة وجاذبية . والسيد هول من اشهر المحامين في هذا الاقليم ، كما انه رجل ذو ثقافة عالية وآراء متحررة ، وقد استضاف في هذا اليوم صديقا له ألقى محاضرة في الليلة السابقة في كنيسة البلدة .

لم تكن المناقشة بين الحاضرين حادة ، فقد كان الحديث حفيفا بعض الشيء . وللسيد هول قدرة على تقليد بعض الرجال باداء بعض مواقفهم وما يبدون من حركة أو اشارة . وكان يصف لصديقه الذى حضر من شرق الولايات المتحدة بعض المحامين القدماء الذين عرفهم أثناء مزاولته المهنة في الغرب بطريقة مسلية ، وضحك الضيف من كل قلبه لهذه الطرائف .

وبعد قليل تحقق السيد هول أن السيد أوتيس لا يصغي اليه ورأى انه يتطلع من النافذة الى شخص ما وقرأ على وجهه مسحة من الكآبة والضيق .

ـ ماذا ترى يا سيد أوتيس ؟

ـ أرى امرأة ملتوية مكدودة .

وإذ ذاك نهضت السيدة هول وتوجهت الى النافذة فرأت السيدة ماركهام وهي تسير الى جوار المنزل ، وطفلها بين ذراعيها ، الحزن مرتسم على وجهها وشعثها ، والدموع ترقرق في عينيها وفي ظهرها ضعف وفي مشيتها تعثر . وبعد ما سمعت اعتاف السيد أوتيس يقول رأيت هذه المقلوقة العبرة البائسة مرتين هذا الصباح وفي أنحائه . وسألت السيدة هول بكل رقة : من تعني ؟ .

ـ ان اسمها ماركهام هي زوجة سام ماركهام تقدمت السيدة الصغيرة الجميع الى حجرة الجلوس واتخذ الرجال مقاعدهم ، واشعلوا لفائف التبغ وفكر السيد هول

فى تحويل مجرى الحديث حين استأنف السيد اوتيس الكلام فجاة قائلا :

ـ قدمت هذه المرأة الى البلدة للترويح عن نفسها ، وهى تجوس هذا الشارع كقط جائع أضناه التعب ، فهل يوجد فى هذه البلدة سيدة لديهـا من الشفقة والشجاعة ما يدفعها للخروج لمساعدة هذه المرأة؟ ان الأندية ومجامع السياسيين وحوانيت البقالة رددت روحها بالسلبية حتى انه نسى روحه وتركها دون كلمة .

وهنا سقطت من يد السيدة الخيوط التى كانت تنسجها وارتسم الألم على وجهها الجميل ، وكان كلمات الرجل قد جرحت كبرياءها ومست شغاف قلبها فاحدثت قبعتهـا واسرعت الى الطريق فنظر الرجلان بعضهما الى بعض ثم قال الزوج : يبدوان الهواء بحيرة والرطوبة تزداد فى هذا المكان ، واقترح أن نخرج للنزهة مرحلين .

شعرت دليا ، السيدة ماركهام ، بيد تربت ذراعها وهى جالسة فى ركن مجزى المقال .

ـ يبدو عليك الاعياء ياسيدة ماركهام فهل تسمحين بالراحة فى المنزل بعض الوقت ، انا السيدة هول

استدارت السيدة ماركهام والدهشة على وجهها ، والجواب محبوس على لسانها ان شيئا ما فى وجه السيدة هول الصغير الحلو يسمعها من الكلام وأخيرا قالت وقد انسطت تعطية حبينها :

ـ اشكر عطفك ، ان هذا وقت الرجوع الى البيت ، انى ابحث عن روحى .

ـ تعـالى بالدخول بعض الوقت ، فالطفل عاصب تهكه التعب .

وهنا اذعنت السيدة ماركهام لهـذا الصوت الصديق ودلفت السيدتان من البوابة على حين خرج الرجلان من الجانب الآخر

ـ دعينى أخفف عنك ياسيدة ماركهام

ـ ان الطفل تعلوه غبره .

ـ اه .. ما أكبره ، ليس لدى طفل

ومرت نظرة بين السيدتين كشرارة كهربية اصبحت بعدها دانيا صيغتهـا المطبعة دخلت السيدتان فى حجرة الجلوس وهى حجرة انيقة وجميلة من نظر روحة فلاح ، وعندما غاصت فى الكرسى الوثير تعب وسنانة من فرط السرور وترطب حلقها الجاف بشىء بارد ، وانبعثت فى باطنها موجة دافقـة من الرضـاء ، استسلمت لتمشيط شعرها واسـلمت الطفل الى يد فتاة سويدية تعمل فى المنزل فمسحت وجهـه ويديه وعنت له ليمام ، على حين كانت امه ترتشف الشاى وقد زال الالم من ظهرها وتوقف رأسها الساخن المورم عن الدق .

رأت السيدة ماركهام كـل شىء ، المعرف واللوحات والستائر وورق الحائط وحمالة الشاى ، وكان كل هذه الادوات قد اعتبطت بحضورها مثلها فى ذلك مثل الطعام والشاى العاطر ، وهى لم تر أبدا ادارة للمنزل كهذه الادارة ، فامها طول حياتها ، ابلت بخدمتها فى المنزل أرضية المطبخ فى بيوت أكثر اتساعا وفخامة غير أن سحر خصيصتها ينحصر فى تنظيم دهرياتها ومقاعدها ولوحاتها مما يشهد لها بالذوق الجميل .

لم تسألها السيدة هول عن شئونها بل تحدثت اليها عن الطفل الصغير الذى

وعما وقعت عليه أبطارها فى هذه الزيارة واذا بدا اهتمامها بزهرية مثلا شرعت تحدثها عنها حديثا يناسبها ، كما رأت داليا كل اللوحات والكتب وكان السيدة حول فرأت أفكارها فاستمعت فى الحديث معها عن مررعتها وشئونها الخاصة جهد امكانها ، وأخيرا رفعت عطاء البيان ، وغنت لها لا الالحان الدينية البطيئة ، ولكن اغانى الحب العامرة بالعاطفة .. أدركت سيدة المنزل أن زوجة الفلاح كانت تتفحص بيديها وقرطيها وومضات اسنانها على مفاتيح البيان ، ورات اكثر مما سمعت وخلال هذا كله ظهر انها هى أيضا قضت وقتا طيبا .

انتبه الجميع فجأة على صوضاء عربة فى الخارج وكان الزوج سام ينتظر على العربة ، فنهضت السيدة ماركهام بسرعة وهى تلتقط انفاسها من الدهشة وتنظر خارج النافذة

ـ أوه .. كادت الشمس أن تغيب .

ـ أجل .. أن هذا لايصير أحدا . . لاتسرعى .. حتى الطفلة باكارى الى العربة ، أما انا فاساعدهـــا فى بعض شئونها .

ـ لقد قضيت وقتا طيبا .

واصلت السيدة حولى على كلامها ، ثم حملت الطفل لحظة عند صعود السيدة ماركهام الى العربة وصاحت عندما صمته اليها .

ـ أوه . أيها الشاب الكبير السمين مستر ماركهام يجب أن تحضر زوجتك هنا كثيرا .

ـ شكرا لك . سوف أحضرها .

ـ وداعا ياعزيزتى .

اما الشقة والحنان البادبان فى صوت الصبية فقد جعل دموع الفرح تترقرق فى عينى داليا .. دموعا ليست بالساخنة ولا بالمرة بل دموعا طبيعية تطرتهـــا وصفت أفكارها .

هدأت الريح وهبطت اشعة الشمس الحمراء بين الضباب على عالم الخطـــة وبقاياها المتروكة فى الارض بعد الحصاد وكان الصرصور يرقرق والماشية تتجول صوب المزارع ، لقد حملت العـــاطفة الانسانية من هذا اليوم يوما جميلا .